من قراء كتاب الله

الشاطبي

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

المدرس بكلية دار العلوم

هو القاسم بن فيره (١) بن خلف الرعيني الشاطبي، ولد في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بشاطبة إحدى بلاد الأندلس، فاقد البصر، فحفظ ببلدته القرآن، وقرأ بها القراءات وأتقنها، ثم رحل إلى بلنسية بالقرب من بلده، حيث عرض ما درسه من القراءات على بعض أساتذتها، وأعاد درس كتاب التيسير للداني ودرس الحديث والنحو والأدب والفقه والتفسير، فقرأ الكتاب لسيبويه، والكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة. وربما قرأ بها كتاب الظمآن في تفسير القرآن، على مؤلفه أبي الحسن بن النعمة، كما روى تفسير عبد الحق بن عطية. وقد أوتي استعدادا خاصا، مدحه النبوغ في كل مادة درسها. وكان قوي الحافظة، فكان عالما بكتاب الله قراءة وتفسيرا، مبرزا في حديث رسول الله، إذا قرئ عليه البخاري ومسلم والموطأ يصحح النسخ من حفظه، ويملي أمالي على الموطأ في المواضع المحتاج إليها، إما في النحو واللغة ورواية الأدب، إلا أن السليقة الأدبية كانت تنقضه، فجاء شعره معقدا صعبا، تنقصه حرارة العاطفة وروح الفن، ومن ذلك قوله:

يلومونني إذ ما وجدت ملاعما ... ومالي سليم حين سمت الأكارما

وقالوا: تعلم، للعلوم نفاقها ... بسحر نفاق تستخف العزائما

وهي قصيدة طويلة. وله:

بكى الناس قبلي، لا كمثل مصائبي ... بدمع مطيع كالسحاب السوائب

وكنا جميعا ثم شتت شملنا ... تفرق أهواء عراض المواكب

ولكن ذلك لا ينقص من قدره عالما كبيرا

ويقول ابن خلكان وصاحب نفح الطيب: إنه قد خطب ببلده مع صغر سنه. أما أبو شامة في ذيل الروضتين فيروي أن سبب انتقاله إلى مصر أنه أريد أن يتولى الخطابة ببلده فاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليه، فتركها ولم يرجع إليها، تورعا مما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها سائغة شرعا. وربما يكون قد أقيم في الخطابة، ثم فر منها. وترك الأندلس سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، يريد الحج، فدخل مصر في ذلك العام. ولست أدري إن كان قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها، وألقى عصا التسيار في مصر عندما جاء إليها مستوفيا حظه من الثقافة التي تتصل بالقرآن، ولكنه رأى أن يستكمل دراسته للحديث، فسمع بالإسكندرية الحافظ السلفي. ثم جاء إلى القاهرة تسبقه إليها شهرته، فطلبه القاضي الفاضل للاقراء بمدرسته، فأجاب بعد شروط اشترطها عليه، على ما كان فيه من الفقر. ولست أدري عن هذه الشروط شيئا، ولكن القاضي الفاضل، فضلا عن قبول هذه الشروط، أنزله على الرحب والسعة، وعظمه تعظيما كبيرا وجعله شيخ مدرسته. وظل الشاطبي بهذه المدرسة متصدرا لإقراء القرآن الكريم وقراءته، والنحو واللغة، ولم يفارق القاهرة سوى مرة واحدة، زار فيها بيت المقدس، فصام هناك رمضان، واعتكف سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وهنأ صلاح الدين بفتحه، ثم عاد إلى مدرسته التي انتهى إليه فيها رياسة الإقراء، وكان

(١) فيره بكسر الفاء وسكون الياء وتشديد الراء وضمها معناه في لغة أعاجم الأندلس: الحديد، والرعيني نسبة إلى ذي رعين أحد أقيال اليمن وقيل اسمه أبو القاسم، وكنية اسمه، ولكن في إجازات أشياخه له أبو محمد القاسم، كما رآها ابن خلكان

يعرف مذهب الشافعي ومالك ولذا تراه في طبقات الشافعية والمالكية ؛ فضلا عن أن شروط مدرس الفاضلية أن يكون ملما بالمذهبين ؛ وثابر على الإقراء بمدرسته ، فكان يصلي فيها الصبح بغلس ، ثم يجلس للاقراء ، فكان الناس يتسابقون السرى إليه ليلا . وكان إذا قعد لا يزيد على قوله : من جاء أولا فليقرأ . وظل خادما للقرآن الكريم حتى توفي يوم الأحد بعد صلاة عصر اليوم الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة القاضي الفاضل ، وخلف ابنا هو محمد الذي روى قصيدة أبيه في القراءات

أما مواهب هذا الرجل وأخلاقه فقد أكبرها معاصروه ومؤرخوه . قالوا : كان أعجوبة في الذكاء ، يجلس إليه من لا يعرفه فلا يرتاب به أنه يبصر لذكائه ، وأنه لا يبدو منه ما يدل على العمى . زاهدا عابدا ، مخلصا فيما يقول ويفعل ، منقطعا للعلم والعمل ، يتجنب فضول الكلام ، ولا ينطق إلا بما تدعو إليه الضرورة ، ولا يجلس للاقراء إلا على طهارة في هيئة حسنة ، وخشوع واستكانة ، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه . وما كان يرى التقرب إلى الأمراء ، ولا النفاق والزلفى إليهم . حكي أن الأمير عز الدين موسك ، الذي كان والد ابن الحاجب حاجبا له ، بعث إلى الشاطبي يدعوه إلى الحضور عنده ، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه :

قال للأمير نصيحة : لا يركنن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

وكان من تلاميذه طائفة من البرزين ، نذكر منهم أبا الحسن السخاوي ، وهو أجل أصحابه ، وابن الحاجب وغيرهما ، وقد بارك الله في أصحابه ، فكلهم قد أنجب ، وكلهم كان يضمر لأستاذه أسمى آيات الحب والإجلال ، حتى أنشد أبو شامة المقدسي من نظمه في ذلك :

رأيت جماعة فضلاء فازوا برؤية شيخ مصر الشاطبي
وكلهم يعظمه ويثني كتعظيم الصحابة للنبي

وترك لنا القاسم أربع قصائد ، عرفت الأولى بالشاطبية ، واسمها حرز الأماني ووجه التهاني . والثانية رائية ، والثالثة دالية . والرابعة تدعى : تتمة الحرز من قراءة أئمة الكنز

أما الأولى فأشهر ما خلف ، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا . قال عنها ابن خلكان : لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ؛ فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها . أما ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ فيقول : ومن وقف على قصيدتيه علم مقدار ما آتاه الله في ذلك خصوصا اللامية (الشاطبية) التي عجز البلغاء من بعده عن معارضتها ، فإنه لا يعرف مقدارها إلا من نظم على منوالها ، أو قابل بينها وبين ما نظم على طريقها . ولقد رزق هذا الكتاب من الشهرة والقبول مالا أعلمه لكتاب غيره في هذا الفن ، بل أكاد أن أقول ، ولا في غير هذا الفن ، فإني لا أحسب أن بلدا من بلاد الإسلام يخلو منه ، بل لا أظن أن بيت طالب علم يخلو من نسخة به . ولقد تنافس الناس فيه ، ورغبوا في اقتناء النسخ الصحاح منه ، حتى إنه كانت عندي نسخة اللامية والرائية بخط الحجيج صاحب السخاوي مجلدة ، فأعطيت بوزنها فضة ، فلم أقبل . ولقد بالغ الناس في التغالي فيها ، وأخذ أقوالها مسلمة ، واعتبار ألفاظها منطوقا ومفهوما ، حتى خرجوا بذلك أن تكون لغير معصوم ، وتجاوز بعض الحد فزعم أن ما فيها هو القراءات السبع ، وأن ما عدا ذلك شاذ ، لا تجوز القراءة به ، وقال بعضهم يصف الشاطبية :

جلا الرعيني علينا ضحى عروسه البكر ، ويا ما جلا
لو رامها مبتكر غيره قالت قوافيها له الكل : لا

ولقيت هذه القصيدة عناية كبرى من الشراح الذين حلوا رموزها ، ووضحوا مراميها . وأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، وقد قرأ القصيدة على أستاذه ، وسمى شرحه : فتح الوصيد ، في شرح القصيد . وشرحها أبو شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ شرحا سماه إبراز المعاني . قال في كشف الظنون ، وهو تأليف متوسط لا بأس به ، ثم اختصره في كتاب سماه إحراز المعاني (بدار الكتب رقم ٣٤ قراءات) وشرحها غير هذين الرجلين شروحا كثيرة تجدها في كشف الظنون ، أفضلها وأدقها شرح برهان الدين الجعبري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، واسمه كنز المعاني (بدار الكتب رقم ١٤٩ قراءات)

وقام باختصار هذه القصيدة جمال الدين بن مالك النحوى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ فى قصيدة سماها : حوز المانى فى اختصار حرز الأمانى ؛ والمختصرة من بحر الشاطبية وقافيتها . كما قام باكمالها أحمد بن على المحلى الضرير شيخ القراء بالقاهرة المتوفى سنة ٦٧٣ هـ وكان الشاطبى نفسه قد أتى بها من قبل فى قصيدة سماها نقمة الحرز من قراء أئمة الكنز ، وهى فى رواة القراءات السبعة

وقد ساعد الشاطبى على نجاحه فى رموزه وإشاراته ذهن يحب الإلغاز ويميل إليه ، قالوا : إنه كان كثيرا ما ينشد هذا اللغز ، وهو للخطيب الحصكفى فى نعش المونى :

أتعرف شيئا فى السماء نظيره ... إذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا ، وتلقاه راكبا ... وكل أمير يتقيه أسير
يحض على التقوى ، ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستتر عن رغبة فى زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

وقد ألف الشاطبى قصيدته حرز الأمانى بالقاهرة ، وعرفنا أن مصدرها كتب أبى عمرو الدانى التى درسها القاسم بن فيره . أما الرموز والإشارات التى بها فمن بنات أفكاره

ونظم فى القاهرة أيضا قصيدته الرائية فى فن الرسم ، وهى نظم لكتاب آخر فى هذا الفن لأبى عمرو الدانى ، قال ابن خلدون : وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضا ، وهى أوضاع حروف القرآن فى المصحف ورسومه الخطية لأن فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط ، كزيادة الياء فى (بأييد) ، وزيادة الألف فى (لا أذبحنه) و (لأوضعوا) والواو فى (جزاؤ الظالمين) وحذف الألفات فى مواضع دون أخرى ، وما رسم فيه من التاءات ممدودا ، والأصل فيه مربوط على شكل الهاء ، وغير ذلك . فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها ، فكتب الناس فيها أيضا ، وانتهت بالمغرب إلى أبى عمرو الدانى ، فكتب فيها كتبا من أشهرها كتاب المقنع ، وأخذ به الناس ، وعولوا عليه ، ونظمه القاسم الشاطبى فى قصيدته المشهورة على روى الراء ، وولع الناس بحفظها ، وسمى الشاطبى قصيدته الرائية : عقيلة أتراب القصائد ، فى أسنى المقاصد (بدار الكتب رقم ب ٢١٤٤٦) وشرحها كذلك شارح حرز الأمانى إبراهيم الجعبرى وغيره

أما القصيدة الرابعة فدالية تبلغ خمسمائة بيت ، أحاطت بما فى كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المانى والأسانيد للحافظ ابن عبد البر ، وضعه فى الفقه والحديث

وللشاطبى كذلك كتاب الاعتصام وهو فى الفقه على ما يبدو مما نقله عنه الأستاذ محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية (ج ٢ ص ٣٣) ، ومنظومة رائية فى بيان المدنى والمكى من الآيات والسور ، عدد أبياتها مائتان وسبعة وتسعون بيتا . (بدار الكتب رقم ب ٢٢٥٣٥)

وبعد فإنه لا يضير الشاطبى أنه استقى مؤلفاته من كتب غيره ، فإنه انفرد بنظمها ، ووضع رموزها وإشاراتها ، وتقريب العلم بها لطلبة العلم وحفاظه ، وقد أصبحت كتبه ملاذ طلاب هذه الفنون ، أكثر من الأصول التى أخذت عنها

أحمد أحمد بدوى

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى
لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين »

قص فيها بأسلوبه الشعرى تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب ... وهى كالام « فرتر » فى دقة الترجمة وقوة الأسلوب ... طبعت أربع مرات وثمنها
٢٥ قرشا عدا أجرة البريد